القضية-المفتاح لحركة بروليتارية جديدة

لا يمضي يوم دون أن تثار فيه مواضيع المهاجرين النازحين والمهاجرين الوافدين في الصفحات الأولى من الجرائد والمحطات التلفزية وشبكات التواصل الاجتماعي منذ ما يناهز عقدين من الزمن. زمرة من صحافيين وبرلمانيين...الخ "خبراء" (نصفهم امي ونصف مزور وغالبا ما يكونون اميين ومموهين على حد السواء)، تتهمهم بمختلف الاثام كالاجرام والمخدرات والدعارة والامراض والعادات البدائية، يطمسون هويتنا وثقافتنا وقيمنا ونساءنا ومشايخنا وعرقنا. انهم منافسون مكراء في سوق الشغل يسرقون العمل "لعمالنا". انهم مستغلون أتو ليعتاشوا على كرم نعيم رعايتنا. ينتهكون قوانينا المقدسة بانتظام، المكتوبة منها والشفهية. انهم يشكلون بذلك خطرا رهيبا، تهديدا خطيرا يجب ابعاده بكل الوسائل التي نمتلكها، بخلق حالة **استنفار** حقيقية. قد يكون هناك مهمشون، ومنحرفون وأوباش أوعصابات مسلحة من السفاحين، على استعداد لتسوية حساباتهم معهم هنا، على الاراضي الوطنية، في ماتشيراتا وفيرينتسي وروزارنو، هذا إن لم يَكُفِ أصدقاؤنا في ليبيا، المجرمين المتآمرين باوامر مِنّيتي وسالفيني، لتعذيبهم وتعذيبهن واغتصابهم واغتصابهن على الاراضي الليبية واغراقهم واغراقهن حشودا في البحر الابيض المتوسط، بعد السطو على مدخراتهم البئيسة.

وتتغير الصورة-الرمز المستهدفة حسب الزمن: ففي الآونة الأخيرة كان المستهدف هم "المهاجرون السريون" وطالبو اللجوء، وخاصة القادمين منهم من أفريقيا. وقد كان المستهدفون فيما قبل بشكل تسلسلي هم الألبان والغجر والرومانيون والمسلمون والصينيون (كم ندمت المتهورة موراتّي على ذلك...) . وفي كل الاحوال، فالجماعات التي يتم استهدافها بين الفينة والأخرى لسيت وحدها من تم اذلالها وتجريمها وشيطنتها، فباستهدافها يتم استهدف كل"الأجانب". حتى حينما تتم الإشارة الى الاستثناءات رسميا، انما يتم استعمالها لاثبات القاعدة.

لكنه لا يمضي يوم على مر هذه العقود دون أن يعمل المهاجرون النازحون والمهاجرون الوافدون المثارون في الصفحات الاولى من الجرائد والمحطات التلفزية وشبكات التواصل الاجتماعي على إسماع صوتهم وعللهم، على قدر استطاعتهم **بشتى أنواع المقاومة الفردية منها والجماعية**: احتجاجات وانتفاضات في حقول جني الخضروات والفاكهة وفي مراكز تحديد الهوية والترحيل وفي مراكز الاستقبال الاستثنائية، مظاهرات، ونضالات نقابية، ومنظمات وجمعيات وعرائض ومقابلات وكتب وأغاني وانتحارات. الجزء الأكثر نشاطا ووعيا من البروليتاريا الوافدة لا يقبل أن يكون كبش فداء المشاكل الاجتماعية التي ابتليت بها الطبقة العاملة الأصلية، لانهم يعانون هم أيضا وبشكل مضاعف من نفس هذه الشرور الكامنة في الاستغلال المفرط، وانعدام كل من الاستقرار والأمن وغياب المستقبل.

هذه الحرب الطبقية، التي أطلقتها القوى الرأسمالية ضد العمال والعاملات المهاجرين النازحين منهم والوافدين، ذات أوزان متغيرة، هي إحدى القضايا الرئيسية لعصرنا، قضايا **لا يمكننا أن نبقى محايدين أمامها**. فالرهانات كثيرة ولا تخص العمال والعاملات المهاجرين الوافدين فقط. إنها مسألة عبودية أو تحرر كل الذين يعيشون من عرق جبينهم. يلجأ أرباب العمل والحكومات لكل الوسائل، مكشوفة كانت أو مغلفة، من أجل إثارة البروليتاريين الأصليين ضد البروليتاريين المهاجرين الوافدين، من أجل خلق حاجز من سوء الفهم والكره بينهما، وبين مختلف المهاجرين الوافدين من مختلف الجنسيات. هذا التصدع، علاوة على التضاد المفترض بين العاملين والعاطلين عن العمل، هو **سر** استقرار سلطة الرأسمال في أماكن العمل وفي المجتمع.

يجب كشف هذا السر وتمزيقه اربا اربا، و**يجب إلقاء الضوء على إتحاد الحاجات والمصالح المشتركة بين جل العمال الأصليين والعمال الهاجرين الوافدين**. هي عملية عاجلة. لأن عنصرية الدولة في المجتمع الايطالي، كما هو الحال في باقي أوربا، تتوغل بين العامة أكثر فأكثر. والفضل في ذلك يعود الى العمل القذر الذي قامت به كل من الحكومات والأجهزة المؤسساتية خلال العقود الأخيرة، من رابطة الشمال، ومن اليمينيين القدماء منهم والجدد و، بطريقة أكثر مكرا ومنهجية في نفس الوقت، من حركة خمس نجوم دون أية معارضة طبقية قوية في الميدان. المعاداة للعنصرية ذات الجوهر الانساني، مع ملتمس لحماية المختلفين، والفقراء والضعفاء والبؤساء، أو المعاداة للعنصرية ذات الطابع الليبرالي التي تنتهي إلى الدفاع عن حرية الهجرة والتنديد بالحدود، هما جسور هشة أمام خنازير الدعاية الرأسمالية والتدخلات القمعية للدول.

أعلنت كل من الدولة الإيطالية والاتحاد الأوربي والرأسماليون حربا حقيقية على المهاجرين النازحين والمهاجرين الوافدين. *À la guerre comme à la guerre!* يعني لنا هذا البحث في *الجذور التاريخية*، لمَعرفة *الأسباب الجوهرية* الدائمة والهيكلية للهجرات الدولية، وفَهم ميكانيزمات السيطرة الاستعمارية-الإمبريالية للأمس و لليوم، وبالتالي الكشف عن مروجي هذه الحرب. يعني تفكيك مفاهيم الهجرة كـ"حالة طوارئ" والهجرة كـ"غزو". استنكار الاستعمال الرأسمالي والمُعادي للعمال وللقوة العاملة المُجبرة على الهجرة، واستنكار المهمة الحقيقية لسياسات "الانغلاق" البوليسية لأوربا-الحصن وتعهيد الحدود الأوربية، التي تعتبر حكومة رابطة الشمال-حركة خمس نجوم أبطالها، ويعني في الوقت نفسه، تفسير، بالنسبة للحاضر والماضي، الدور الطلائعي للكفاح الذي خاضته البروليتاريا الوافدة، وإظهار كيف أن العداء والكره اللذان كانا يكنان لهم، سم يشل ويقتل أية إمكانية مقاومة للبروليتاريا الاصلية.

لسنا من بين الذين يذهبون للبحث الابدي عن البروليتاريين "الخالصين" لاثارتهم ضد أولئك المتعفنين، لا نعتبر الشعوب المهاجرة الوافدة كوحدة متنافرة من المستغلين مستعدين للكفاح الطبقي المعادي للراسمالية. نحن على علم تام بتقسيمهم الطبقي الاجتماعي المتصاعد و تعرضهم المتزايد لامتصاص "قيمنا" الفردانية المنحلة. سنتطرق طبعا إلى هذه التعقيدات. يبقى المعطى الحقيقي ان هذا المكون الفحل والجديد للعمل المأجور قد حمل هنا (يعني بإيطاليا وبأوربا) **توقعات التحرر النارية** لمآت الملايين من المستغلين والمستغلات الملونات، ارادتهم التخلص من ثقل قرون من السيطرة الاستعمارية والنيو-استعمارية: في بلدانهم وفي البلدان الاوربية التي اغتنت عبر القرون على اكتافهم وبعرق جبينهم. بهذا الخصوص ايضا هناك حيث ترى الرماد، تجد النار تلتهب. وقد نجد بإيطاليا شعلات كفاح يشعل اريجها العمال والعاملات المهاجرات الوافدات وراينا منهم الكثير في ايطاليا في مجال الخدمات اللوجستيكية وفي القرى وفي أماكن احتجازهم!

ضد روح الزمن القاتمة، لدينا ايمان اولا في **موضوعية العمليات القائمة**. فقد بدأت الهجرات الدولية تغير تركيبة طبقتنا في الحقول، وفي ورشات البناء وفي المصانع وفي المخازن، وفي المكاتب نفسها. بدأت تظهر بروليتاريا متعددة الجنسيات والاعراق والثقافات في ايطاليا وفي اوربا. وكيفما كانت الاحكام المسبقة والتمييز العنصري منشرة ببراعة، فإن هذه العملية **المرحلية** ستضعف **حتما** كل الحواجز الوطنية. هي عملية جزيئية، وحيوية تتقدم اتجاه العمق. والخوف من قوتها الخارقة هو ما يدفع التشكيلات العنصرية الاكثر عدوانية للخروج الى الضوء، وفتح باب مطاردة المهاجرين الوافدين. هم على عجلة من أمرهم لانهم يعرفون أن الزمن ليس من صالحهم. حيث أن يد الراسمالية العظمى والدول تقف وراءهم، حتى لو أن كراكيز الصف الاول هم في معظم الاحيان بورجوازيون صغار متعصبون {أو متعصبون وهميون} حيث أن السُّذَج غالبا ما يكونون من المهمشين.

ضد روح الزمن القاتمة، على اساس الثقة في موضوعية العمليات القائمة والتعقد التدرجي للتناقضات المثارة من طرف الازمة الخانقة التي تفجرت سنة 2008، نقول: **إنه لم يتقرر شيء بعد**. حتى العمال الاصليون يتواجدون منذ عقود تحت وطأة الهجوم في ايطاليا ولا سيما في اوربا. وفي البورصات والبنوك والحكومات والبرلمانات التي تنحرهم، ليس المهاجرون الوافدون "السريون" ولا طالبو اللجوء من يُملي القانون! فقد عمل انعطاف انعدام الثقة والاستياء على التنقيب بين القوى المتشكلة والجماهير المتنامية من المأجورين، والمواطنين العاديين الذين لا يستغلون عمل أحد. لذا فتحفيز التضامن وامكانية الوحدة بين العمال والعاملات الاصليين والمهاجرين الوافدين ليس برنامجا دونكيشوطيا. حرب الرأس مال على العمل المأجور موحدة؛ وعلى هذا النهج يمكن، بل وينبغي أن تسير مقاومة وتحرر العمل المأجور ضد راس المال. في حرب أيامنا هذه ليست البروليتارية الاممية تركة قديمة يمكن إخراجها من المخزن وتنظيفها، **هي العبارة الطبيعية والحيوية لحقيقة الطبقة المعاصرة التي كانت أممية بالفعل**، في كل بلد، في كل مدينة وفي عدد كبير من أماكن العمل. ومع هذه الحقيقة التي ستكسر قرون هذا الحشد من "اليساريين السياديين" المتفاني في تدوير مواضيع اليمين القومي المتشدد والعنصري المعادية للبروليتاريا بصبغة "اجتماعية".

تبقى المجلة مجلة، طبعا. كما الحالمين، لا يمكنا أن نطمح لجمهور واسع. لكننا نأمل أن نكون قد أعطينا سلاح نضال حاد لمآت من قُرّائنا لاستخدامه على مستوى العامة. والباقي حتما سياتي.